اهداف الرسالة ترکیز معالم التوحید و تقویض دعائم الشرک

نویسنده: معرفت،محمد هادی
فلسفه و کلام :: الفکر الاسلامی :: خرداد 1376 - شماره 18 و 19
از 225 تا 240
آدرس ثابت : http://www.noormags.com/view/fa/articlepage/13633

دانلود شده توسط : محمدامین رمضانی
تاریخ دانلود : 1393/06/04 00:51:45

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) جهت ارائهٔ مجلات عرضه شده در پایگاه،مجوز لازم را از صاحبان مجلات، دریافت نموده است، بر این اساس همه حقوق مادی برآمده از ورود اطلاعات مقالات، مجلات و تألیفات موجود در پایگاه، متعلق به "مرکز نور" می باشد. بنابر این، هرگونه نشر و عرضه مقالات در قالب نوشتار و تصویر به صورت کاغذی و مانند آن، یا به صورت دیجیتالی که حاصل و بر گرفته از این پایگاه باشد، نیازمند کسب مجوز لازم، از صاحبان مجلات و مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) می باشد و تخلف از آن موجب پیگرد قانونی است. به منظور کسب اطلاعات بیشتر به صفحه قوانین و مقررات استفاده از پایگاه مجلات تخصصی نور مراجعه فرمائید.

پایگاه مجلات تخصصی نور

www.noormags.com

أهداف الرسالة
تركيز معالم التوحيد وتقويض دعائم الشرك

الشيخ محمد هادي معرفة

معالم التوحيد

قد فصل المحقّقون الاسلاميون الكلام في مسألة التوحيد، وركّزوه على معالم اربعة:

١ ـ التوحيد في الذات: فهو تعالى واحد في ذاته المقدسة، لا تركيب ولا اعضاء ولا فيه خواصّ الجسمية، كما لا ثانيَ لوجوده، لا إله إلّا هو الحيّ القيوم.

٢ ـ التوحيد في الصفات: فإن صفاته عين ذاته.. ليس وراء ذاته شيء. حيث صفاتُه تعالىٰ منتزعة من مقام ذاته المقدّسة، باعتبار الغايات لا اقتران المبادئ مع الذات.

٣ ـ التوحيد في الأفعال: وهو سبحانه لا شريك له في الخلق والإيجاد، ولا خالق إلّا هو ولا مدبّر إلّا هو، ولا مؤثّر في الوجود إلّا الله، كل شيء يقع باذنه، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

٤ ـ التوحيد في العبادة: لا اله إلّا الله، ولا معبود سواه... وما من شفيع إلّا من بعد اذنه.

١ ـ التوحيد في الذات:

فهو تعالىٰ واحد في ذاته المقدسة، لا تركيب، ولا اعضاء، ولا فيه خاصيّة الأجسام ﴿... ليس كمثله شيءٌ...﴾[١] كما لا ثاني لوجوده ﴿... لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم ...﴾[٢].

---

(١) الشورىٰ: ١١.

(٢) البقرة: ٢٥٥.

www.noormags.com

وهذا هو مفهوم «الأحديّة» ـ أحديّ الذات ـ حسبما جاء في سورة التوحيد: ﴿قل هو الله أحد﴾[1].. فذاته المقدسة وحدانيّة الوجود، وجوداً متعالياً عن الحدّ والعدّ والتجزئة والتقسيم الى اجزاء وجوارح واعضاء.

وفي حديث الأعرابي مع الإمام امير المؤمنين عليه السلام في تقسيمه للوحدانية إلى اربعة أقسام. قال:... والقسم الرابع، أنّه ـ عزّوجلّ ـ أحديّ المعنى، يعني: أنه لا ينقسم في وجودٍ ولا عقلٍ ولا وهمٍ.. كذلك ربُّنا عزّ وجلّ..[2]

وبهذا الاعتبار ينتفي بشأنه التشبيه والمماثلة مع الخلق، فلا يتصوّر بشأنه التحديد والتجسيم، وسائر سمات الجسميّة اطلاقاً.

وهذا على خلاف ما ذهب إليه أهل الحشو من القول بالتشبيه وانّ له اعضاءً وجوارحَ، وله صفات الجسمية، فيحجزه مكان، ويتحيّز حسب الجهات الستّ، وله وجه ويدان وساق، وسائر الأعضاء، تعالى الله عن ذلك.

قال ابن المرتضى ـ هو الامير احمد بن يحيى اليمني الحسني المتوفى سنة ٨٤٠ ـ: والحشويّة هم الذين يروون الأحاديث المحشوّة، أي التي حشاها الزنادقة في اخبار الرسول صلى الله عليه وآله ويقبلونها ولا يتأوّلونها، وهم يصفون انفسهم بأنهم اصحاب الحديث، وانهم أهل السنّة والجماعة، ولا مذهب لهم منفرد، واجمعوا على الجبر والتشبيه، وجسّموا وصوروا وقالوا بالاعضاء، وقدّم ما بين الدّفتين من القرآن، ويدّعون ان أكثر السلف منهم، وهم براء من ذلك. وينكرون الخوض في علم الكلام والجدل، ويعملون على التقليد وظواهر الآيات..[3]

وحكى الاشعري عن محمد بن عيسىٰ انه حكىٰ عن مضر، وكهمس، واحمد الهجيمي، انهم أجازوا علىٰ ربهم الملامسة والمصافحة، وان المسلمين المخلصين يعانقونه في

---

(١) التوحيد: ١.
(٢) راجع كتاب التوحيد لابي جعفر الصدوق: ٨٣ ـ ٨٤.
(٣) المنية والامل بشرح الملل والنحل: ١١٤ ـ ١١٦ ط. دار الفكر ١٣٩٩ هـ.

www.noormags.com

الدنيا والآخرة إذا بلغوا في الرياضة والاجتهاد الىٰ حدّ الاخلاص والاتحاد المحض.

وحكى عن داود الجواربي قال: ان معبوده جسم ولحم ودم وله جوارح واعضاء من يد ورجل ورأس ولسان وعينين واذنين، ومع ذلك جسم لا كالاجسام، ولحم لا كاللحوم، ودم لا كالدماء، وكذلك سائر الصفات، وهو لا يشبه شيئاً من المخلوقات، ولا يشبهه شيء.

وما ورد في التنزيل من الاستواء والوجه واليدين والجنب والمجيء والاتيان والفوقية وغير ذلك، فقد أجروها علىٰ ما يفهم من ظاهرها عند الاطلاق على الاجسام..[1]

قال عبد الله بن محمد الاندلسي المالكي:

لله وجه لا يحدّ بصورة ... ولربنا عينان ناظرتان

وله يدان كما يقول آلهنا ... ويمينه جلّت عن الأيمان

كلتا يديه يمينٌ وصفها ... فهما على الثقلان منفقتان[2]

والوحدانيّة في الذات كما تستدعي نفي التركيب والجسميّة، كذلك تستلزم نفي التعدد والاثنينيّة.. فلا ثاني له في الوجود، لا نظير له ولا مثيل، ليس كمثله شيء.

إنّ تصوّر معنى الأُلوهية، هي بذاتها لتستدعي نفي امكان التعدد والاثنينيّة، إذ الأُلوهيّة لتستدعي تقدماً على كل شيء، وسبباً وجودياً لكل شيء، وعلّة أُولى للوجود كلّه، الأمر الذي لا يمكن تصوّر اثنين يحرزان هذا المقام، وان ذلك هو مقتضىٰ فرض الكمال المطلق في ذات الإله.

إنّ حقيقة الإله ليست من تلك الحقائق التي تقبل التعدد والاشتراك والتماثل في مفهومها، كلّا، فانّ الذي يقبل ذلك فانما هو الكمال الاضافي الناقص، أمّا الكمال التام

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ١: ١٠٥ـ١٠٦.

(٢) من قصيدته التي نشرت في «اربح البضاعة في معتقد أهل السنة والجماعة»: ٣٢، جمع وتأليف علي بن سليمان آل يوسف ـ منشور مكّة المكرمة سنة ١٣٩٣هـ.

www.noormags.com

المطلق ـ الذي هو معنى الالهيّة ـ فان حقيقته تأبىٰ على العقل أن يقبل فيها المشابهة والاثنينيّة، لأنّك مهما حقّقت معنى الالهية حقّقت تقدّماً على كل شيء، وانشاءً لكل شيء ﴿... فاطر السماوات والأرض ...﴾[1] وحقّقت سلطاناً علىٰ كل شيء، وعلواً فوق كل شيء ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾. فلو ذهبت تفترض اثنين يشتركان في هذه الصفات لتناقضت، إذ تجعل كل واحد منهما سابقاً ومسبوقاً، ومُنْشِئاً ومُنْشَأً، ومستعلياً ومستعلىً عليه، او لأحلت الكمال المطلق الى كمال مقيّد فيهما، إذ تجعل كل واحد منهما اضافة الى صاحبه ليس سابقاً ولا مستعلياً، فأنّى يكون كل منهما إلهاً، وللإله المَثَلُ الأعلىٰ[2].

قال الإمام امير المؤمنين عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام:

«واعلم يا بني انه لو كان لربك شريك لاتتك رُسُلُه، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت افعاله وصفاته، لكنه إله واحد كما وصف نفسه، لا يضادّه في ملكه احد..»[3].

وهذا من القياس الاستثنائي، بنفي التالي لاثبات نفي المقدم، والملازمة المبتنى عليها القياس ناظرة الىٰ جهة الفيّاضيّة من جانبه تعالىٰ، فلو كان هناك واجب الوجود غيره تعالى لوجبت عليه افاضة الفيض من جانبه ايضاً، ولعرّفنا نفسه وسماته؛ لأنّ ذلك واجب عليه من باب قاعدة اللطف الشامل... فلما لم يكن شيء من ذلك، عرفنا انه لا إله إلّا هو الواحد القهّار.

٢ ـ التوحيد في الصفات:

كما انه تعالىٰ واحد في صفاته، ليس وراء ذاته الأحديّة شيء، فصفاته

---

(١) الأنعام: ١٤.

(٢) النبأ العظيم للاستاذ عبد الله دراز: ١٣٠. والتمهيد ٥: ٥٩.

(٣) نهج البلاغة: الكتب رقم ٣١.

www.noormags.com

تعالىٰ منتزعة عن مقام ذاته المجرّدة، المتنزّهة عن تحمّل مبادئ الصفات. فهو تعالىٰ عالم بذاته، لا بعلم عارض على الذات. قادر بذاته، لا بقدرة عارضة على الذات. حيّ بذاته، لا بحياة عارضة على الذات. وهكذا سائر الصفات. فذاته المقدّسة متجرّدة عن مقارنة مبادئ الاوصاف. وإلّا لحصل تعدّد القديم، او العروض على الذات، تعالى الله عن ذلك.

قال الإمام امير المؤمنين علي عليه السلام في أُولىٰ خطبه من نهج البلاغة:

«اوّل الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الاخلاص له، وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه. لشهادة كل صفة انها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف انه غير الصفة.. فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله..».

قوله عليه السلام: «فمن وصف الله فقد قرنه..».. اي من قال بأنّ الذات المقدّسة قد تحمّلت مبادئ الصفات.. فقوله هذا يستدعي مقارنة الذات مع مبادئ الصفات، وهناك يحصل تعدّد القديم تعالىٰ.. الأمر الذي يستلزم الاثنينيّة في المبدأ القديم.

قوله: «ومن ثنّاه فقد جزّأه..».. أي الاثنينيّة في المبدأ القديم تستدعي تركيباً في الذات من جزأين، الأمر الذي يستلزم الجهل بمقام الذات تعالىٰ..

ومن ثمّ فإنّ وصفه تعالىٰ بصفاته الذاتية الثبوتيّة إنّما هو بملاحظة الغايات لا المبادئ. كما في صفات الفعل.. قالوا: «خذ الغايات ودع المبادئ»..

وذهب ابو الحسن الأشعري واصحابه: الىٰ ان الباري تعالىٰ عالم بعلم، قادر بقدرة، حيّ بحياة، مريد بارادة، متكلم بكلام، سميع بسمع، بصير ببصر.. قالوا: وهذه الصفات (بمبادئها) ازليّة قائمة بذاته تعالىٰ، لا يقال هي هو، ولا هي غيره، ولا لا هو، ولا لا غيره..[1]

(١) الملل والنحل للشهرستاني ١: ٩٥ـ٩٦.

www.noormags.com

وصدر في بغداد ـ في ١٧ المحرم سنة ٤٠٩ هـ ـ كتاب رسمي، سمّي «الاعتقاد القادري» وقرئ في الدواوين، وكتب الفقهاء فيه:

«إنّ هذا اعتقاد المسلمين ومن خالفه فقد فسق وكفر». جاء في الكتاب:

«وهو القادر بقدرة، والعالم بعلم، ازلي غير مستفاد، وهو السميع بسمع، والمبصر ببصر، متكلم بكلام. لا يوصف إلّا بما وصف بها نبيّه ﷺ وكل صفة وصف بها نفسه او رسوله فهو رسوله فهي صفة حقيقية لا مجازيّة، وان كلام الله غير مخلوق، تكلم به تكليماً، فهو غير مخلوق بكل حال، متلوّاً ومحفوظاً ومكتوباً ومسموعاً. ومن قال: انه مخلوق على حال من الأحوال فهو كافر حلال الدم بعد الاستتابة منه..»[١].

وبهذا الحادث انتهت سيطرة العقل على اصول العقيدة الاسلامية، والتي كان أهل الاعتزال يدافعون عنها.. ليخلفها تقليد ظاهري، ولا يدع لرهان التحقيق والنظر في اصول العقيدة مجالاً في البحوث الاسلامية.. الأمر الذي سيطر على أفكار المسلمين واوجب هبوطاً في نظرتهم الى الحياة.

قال الاستاذ احمد امين: وفي رأيي انه لو سادت تعاليم المعتزلة الى اليوم، لكان للمسلمين موقف آخر في التاريخ غير موقفهم الحالي، وقد اعجزهم التسليم وشلّهم الجبر وقعد بهم التواكل..[٢]

صفات الجمال والجلال

ثم ان صفاته تعالى تنقسم الى صفات ثبوتيّة، هي صفات كمال وجمال، والى صفات سلبية، هي صفات تنزيه وجلال.

فصفات الجمال مما تتحلّى به الذات المقدّسة ـ نظراً الى الغايات لا المبادئ كما نبّهنا عليه

---

(١) المنتظم لابن الجوزي: ١٩٥ـ١٩٦. والحضارة الاسلامية لآدم متز ١: ٣٨١ـ٣٨٢، والبداية والنهاية لابن كثير ١٢: ٦ـ٧، وهامش تأريخ ابن الأثير ٧: ٢٩٩ـ٣٠٠ طبعة دار الكتاب العربي، بيروت.

(٢) ضحى الاسلام ٣: ٧٠.

www.noormags.com

وذلك مثل العلم والقدرة والحياة، وسائر اوصافه الكريمة التي وصف الله بها نفسه في القرآن الحكيم، روى الصدوق بإسناده الى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لله ـ عزّ وجلّ ـ تسعة وتسعون اسماً، من دعا بها استجاب له، ومن احصاها دخل الجنة..» ثم اخذ في تعدادها مع شرح موجز.. فراجع[1].

وصفات الجلال هي صفات تنزّهت ذاته المقدّسة عن الاتصاف بها وجلّت عن الوصف بها.. ليس كمثله شيء، لا تدركه الابصار، وما ربك بظلّام للعبيد، ان الله لا يخلف الميعاد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وقل الحمد لله الذي لا يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذلّ وكبّره تكبيراً.

روى الصدوق بإسناده الى الحارث الأعور، قال: خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يوماً خطبة، فعجب الناس من حسن صفته وما ذكر من تعظيم الله جل جلاله، قال فيها:

«الحمد لله الذي لا يموت، ولا تنقضي عجائبه، لانه كلَّ يوم في شأن من احداث بديع لم يكن، الذي لم يولد فيكون في العزّ مشاركاً، ولم يلد فيكون موروثاً هالكاً، ولم تقع عليه الاوهام فتقدّره شبحاً ماثلاً، ولم تدركه الابصار فيكون بعد انتقالها حائلاً، الذي ليست له في اوليّته نهاية، ولا في آخريته حدّ ولا غاية، الذي لم يسبقه وقت، ولم يتقدمه زمان، ولا يتعاوره زيادة ولا نقصان، ولم يوصف بأين ولا بمكان. الذي بطن من خفيّات الأُمور، وظهر في العقول بما يُرَى في خلقه من علامات التدبير...»[2].

وقد عدّ أهل الكلام الصفات السلبية في سبع: ليس بمركب من اعضاء. ولا هو جسم. ولا هو محلّ للحوادث. ولا يصح أن يُرى بالأبصار. ولا شريك له ولا نظير. ولا هو مقرون

(١) كتابه «التوحيد» ص١٩٥ـ٢١٧. كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي. و«شرح اسماء الله الحسنى» للإمام الرازي. و«شرح الاسماء الحسنى» للمولى السبزواري. و«المقصد الاسنى» للإمام الغزالي. و«اشتقاق اسماء الله» للزجاجي.. وغيرها كثير..

(٢) كتاب التوحيد ص٣١.

www.noormags.com

بالمعاني والأحوال. ولا هو مفتقر الىٰ غيره ولا محتاج، فانه تعالىٰ غنيّ بالذات عزّوجلّ.

٣ ـ التوحيد في الأفعال :

لا مؤثّر في الوجود إلّا الله. ﴿ ذلكم الله ربّكم خالق كلّ شيء لا إله إلّا هو ... ﴾[١]، ﴿ ذلكم الله ربّكم لا إله إلّا هو خالق كلّ شيٍ ... ﴾[٢]، ﴿ ... وخلق كل شيء فقدّره تقديراً ﴾[٣]، ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾[٤]، ﴿ ... هل من خالق غير الله ... ﴾[٥]، ﴿ ... لا قوة إلّا بالله ... ﴾[٦].

من المسائل المستعصية هي مسألة «الاستطاعة»: ما هو دور الإنسان في إيجاد أفعاله الاختيارية؟ وهل للإنسان قدرة علىٰ اختيار ما يريد فعله وترك ما يريد تركه، ام ليس له اختيار لا علىٰ فعل ولا علىٰ ترك، وإنما هو مضطّر على الفعل او الترك وفق ما أراد الله؟

الأمر الذي وقع فيه الخلاف بين الاشاعرة واهل العدل، إذ قالوا: هل للإنسان إرادة فيما يوجده من افعال، ام لا ارادة له، وإنما يفعل ما يفعل بإرادة الله، كآلة صمّاء في يد الفاعل المختار، وهو الله الواحد القهّار؟

ذهب ابو الحسن الاشعري الىٰ سلب اختيار الإنسان، وإنّما إرادة الله مسيطرة على عالم الوجود، فلا يقع فعل ولا يتحقّق عمل من الأعمال إلّا بإرادة الله تعالىٰ، لا مدخل لاختيار الإنسان وارادته، بل لا اختيار له ولا ارادة مؤثّرة.

وحيث كان هذا القول بظاهره يخالف الفطرة، وان للإنسان مدخلاً في صدور افعاله الاختيارية، قالوا ـ تصحيحاً لذلك ـ: إن هناك ارادتين: ارادة قديمة لله تعالىٰ، وارادة حادثة للإنسان ذاته، فارادة الله القديمة القاهرة هي العلة الاصلية لوقوع ما يقع من افعال واعمال، وان كانت بظاهرها منسوبة الى العباد.. وهذه النسبة انما جاءتهم من قبل ارادتهم الحادثة، حيث إنّهم ارادوا فعل شيء او تركه، وهذه الارادة وان كانت لم تؤثر في وقوع ما

---

(١) غافر: ٦٢.
(٢) الانعام: ١٠٢.
(٣) الفرقان: ٢.
(٤) الصافات: ٩٦.
(٥) فاطر: ٣.
(٦) الكهف: ٣٩.

www.noormags.com

وقع، لكنّها صارت سبب هذا الانتساب، ومن ثمّ كانت نسبة الافعال الى العباد نسبة اكتساب، فهم مكتسبون لافعالهم بسبب ارادتهم هذه الحادثة تجاه ارادة الله القديمة التي هي العلة والسبب وسابقة على ارادة العباد، وعليه فالعباد مكتسبون لأفعالهم وليسوا مختارين فيها.. وبذلك قال الأشعري: إن لإرادة الإنسان تأثيراً ما، واراد جهة الإكتساب والانتساب، لا التأثير في الوقوع، الذي هو تحت ارادة الله المستقلة السابقة على هذه الارادات الحادثة..[1]

وهذه هي مسألة «الكسب» التي عرضها الاشعري في هذا المجال.. وهي أيضاً من العويصات، وقد زعم الشعراني انها من الغوامض التي لا يزيل اشكالها إلّا الكشف الصوفي، اما ارباب العقول من الفرق فهم تائهون في ادراكها..[2]

وقد فصلنا الكلام حول هاتين المسألتين (مسألة الاستطاعة ومسألة الكسب) في كتابنا التمهيد[3].

وقال أهل العدل والتنزيه: لا شك في ان الله خلق الخلائق لا شريك له في الخلق ولا خالق سواه، وركب في كل مخلوق صفة وجعل لكل موجودٍ أثراً، وجعل من اوصاف الأشياء وآثارها نوعين: منها ما يصدر عنها صدوراً لا باختيارها ولا هي رهن ارادتها، ومنها ما يصدر عنها صدوراً تحت اختيارها وهي رهن ارادتها.. فهناك فرق ضروري بين حركة يد المرتعش الحادثة لا عن ارادته واختياره، وتحريك اليد لتناول الطعام والشراب المنضبط تحت اختيار الإنسان وارادته، كالفرق بين التنفس والتكلم، وهكذا نبات الشعر وحلقه، فالأول لا اختياري والثاني اختياري.

والفعل الاختياري هو ما اذا شاء الإنسان فَعَله او شاء تركَهَ، الأمر الذي يجده الإنسان في صميم فطرته فارقاً بين الأمرين بديهيّاً لا غبار عليه.

---

(١) المقالات الاسلامية ١: ٣٢٠، والابانة: ٦ـ٧ واللمع: ٦٩. وشرح العقائد النسفية: ٦٥.

(٢) اليواقيت والجواهر للشيخ عبد الوهاب الشعراني ١: ١٣٩. والفتوحات المكية ١: ١٧٧ و٤: ٣٣ـ٣٤.

(٣) التمهيد ٣: ٦٨ـ٧٦ و ١٥٥ فما بعد.

www.noormags.com

فهناك افعال اختيارية تصدر عن الفاعل المختار، حسب ارادته واختياره، يكون هو المسؤول عنها، تحسيناً او تقبيحاً، مدحاً او ذمّاً، ثواباً او عقاباً، ولا يُسأل عنها غيره اطلاقاً.. لا يؤخذ الجار بذنب الجار. ولا تزر وازرة وزر اخرىٰ.. ومضاعفات كل عمل انما ترجع على العامل، تستند إليه تبعاته من خير او شر، صلاح أو فساد، حق أو باطل.

هذا ما تشهد به العقول وضرورة الوجدان، وعليه صحّ التكليف وامكن التشريع، وجاز الأمر والنهي، والبعث والزجر، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، مضافاً الى بعث الرسل وانزال الكتب.. وإلّا لأصبح التكليف لغواً وبطل التشريع والبعث والزجر... ولم يكن موقع لتحسين فعل او تقبيح عمل، ولا استحقاق جزاء، ولكان تحسين المحسن علىٰ احسانه لغواً، وتقبيح المسيء علىٰ سوء تصرفه عبثاً وهدراً، ولكان مثل ذم الذميم علىٰ قبح منظره وقدح القصير علىٰ قصر قامته ذماً وقدحاً في غير محلها.

إذن فهل الإنسان مستقل في تصرفاته، لتقع أعمالُه رهن اختياره وارادته فحسب، ام كان المؤثّر هو الله، خالق كل شيء، خلقكم وما تعملون، إنما هي ارادته تعالىٰ تحقّقت وفق ارادة الإنسان بشأن افعاله الاختيارية، ﴿وما تشاؤون إلّا أن يشاء الله رب العالمين﴾[1].. وذلك تحقيقاً لمبدأ الاختيار في الإنسان، ليصح التكليف والاختبار.

فالإنسان مستقل في ارادته، لكنه غير مستقل في تصرفاته، ان افعاله لتقع رهن ارادته، ولكن وقوعها مسبب عن ارادته تعالىٰ وفق ارادة الإنسان. وقد جرت سنة الله أن يتحقّق ما اراده الإنسان، وان كانت شرائط الوقوع خارجة عن ارادته، واقعة تحت ارادة الله.

فيقع ما يقع من افعال الإنسان الاختيارية وفق ارادته، لكن شرائط الوقوع ـ وهي العوامل الطبيعية المؤثرة في وجود الأشياء وتكوينها ـ خارجة عن اختياره، واقعة تحت ارادة الله السائدة على عالم الوجود.

---

(١) التكوير: ٢٩.

www.noormags.com

انه يزرع البذرة، ولكن عوامل الإنبات خارجة عن اختياره، وإنما هي رهن ارادته تعالىٰ في التأثير.

﴿أفرأيتم ما تحرثون ○ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾[1]. ﴿أفرأيتم ما تمنون ○ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾[2].

فقد صحت النسبة في ذلك الى الإنسان، حيث انه اوجد شرطاً من شرائط الوجود، وهو عمل ضئيل إضافة الى سائر شرائط الوجود الضخمة الواقعة تحت ارادة الله.

فقد صحّ قوله تعالىٰ: ﴿... وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى...﴾[3]. حيث جميع عوامل وقوع الافعال الاختيارية للإنسان واقعة تحت ارادته تعالى المباشرة، وإنما يقع من الإنسان ما يريد وفق اذنه تعالىٰ في التأثير.. ﴿... وما هم بضارّين به من أحد إلّا بإذن الله...﴾[4].

فلا مؤثّر في الوجود إلّا الله، الله خالق كل شيء.. لا شريك له في الخلق.. واليه يرجع الأمر كلُّه. الأمر الذي لا يتنافى ونسبة الافعال الاختيارية الى الإنسان نفسه، حيث بارادته وقعت، وباختياره تحقّقت، لكن باذن الله. وقد وقعت مشيئته تعالىٰ أن تتحقّق الأشياء وفق ارادة العباد.

وهذا هو معنى «الأمر بين الأمرين» الذي جاء التصريح به في كلمات ائمة أهل البيت عليهم السلام:

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «لا جبر ولا تفويض بل امر بين الأمرين»[5].

وقال: «لا جبر ولا قدر ولكن منزلة بينهما فيها الحقّ، لا يعلمها إلّا العالم..»[6].

وقال له رجل: جعلت فداك، أجبر الله العباد على المعاصي؟ فقال: الله اعدل من أن

---

(١) الواقعة: ٦٣ـ٦٤.
(٢) الواقعة: ٥٨ـ٥٩.
(٣) الانفال: ١٧.
(٤) البقرة: ١٠٢.
(٥ و٦) الكافي الشريف ١: ١٦٠ رقم ١٣ و١٠.

www.noormags.com

يجبرهم على المعاصي ثم يعذبهم عليها. فقال له: جعلت فداك، ففوّض الله الى العباد؟ فقال: لو فوّض إليهم لم يحصرهم بالأمر والنهي. قال له: جعلت فداك، فبينهما منزلة؟ فقال: نعم، اوسع ما بين السماء والأرض[1].

فالناس في سعة من أفعالهم الاختيارية، ان شاؤوا فعلوا وان شاؤوا تركوا، وكانت تعود عليهم تبعات اعمالهم، إن خيراً فخير وان شراً فشر، وبذلك صح التكليف وحسن المدح والذم، وجاز الثواب والعقاب، الأمر الذي تشهد له الفطرة السليمة والعقل الرشيد، غير ان الحول والقوة بالله العلي العظيم.

أمّا الأشاعرة فزعمت انها اخذت بجانب مسألة «التوحيد المطلق» وقالت: لا خالق إلّا الله، ومن ثم نفت صحة استناد الأفعال الى العباد، واسندتها الى الله اطلاقاً، فلزمها القول بالجبر، وان العباد مضطرّون فيما يفعلون، وبذلك خسرت مسألة «العدل المطلق» وانكرت الحكمة في التكليف. ولم تدع مجالاً لمسألة الحسن والقبح العقليين، ولا لمسألة استحقاق المثوبة والعقوبة.

وأمّا المعتزلة فاسندت الافعال الى العباد بصورة مطلقة، وقالت: انهم مختارون في فعل ما يريدون وترك ما يكرهون، تحكيماً لمسألة العدل المطلق، ومسألة الحسن والقبح والثواب والعقاب، ولكنهم اسرفوا في القول بالاستطاعة المطلقة حتىٰ نفوا كل تأثير لارادة الله وحوله وقوّته في افعال العباد، ومن ثم لزمهم القول بالتفويض، وان العباد هم المحدثون لأفعالهم بارادتهم وقدرتهم الخاصة، وان القدرة منوطة كل الاناطة باختيارهم واستقلالهم في الارادة والاقتدار.

واختارت الامامية ـ في ضوء تعاليم أئمة الهدىٰ عليهم السلام ـ مذهباً وسطاً في مسألة «القدرة والاستطاعة» فلم يعترفوا للعبد استقلاله الكامل في الخلق والايجاد، ولم ينفوا عنه القدرة

(١) الكافي الشريف ١: ١٦٠ رقم ١١.

www.noormags.com

والاختيار رأساً، قالوا: لا شكّ ان كل ما في الوجود واقع تحت ارادة الله تعالىٰ، فلا يحدث أمر ولا يوجد شيء إلّا بإذنه تعالىٰ، لكن ارادته تعالىٰ قد تعلّقت بان تتحقّق الاشياء وفق قوانين كلية ركّبها في طبيعة الموجودات، فهي تتفاعل مع بعضها، إما بنفسها، كما في الأُمور الطبيعية ـ حسب تعبيرنا ـ مثل دورة الماء في الطبيعة، تبخيراً وتكاثفاً وتقاطراً وخزناً، ثم جرياً واخيراً عوداً الى البحار، وفق نظام رتيب لا يتخلف عبر الدهور، وإما بعلاج كيمياوي او فيزيائي تزاولها يد بشريّة حسب مآربه في الحياة.

كل ذلك واقع تحت قوانين عامّة سارية في طبيعة الوجود، في سلسلة من العلل والمعلولات «قانون العليّة العامة».

مثلاً إذا بذر الإنسان حبّة في الأرض الصالحة، واهتمّ بشأنها من سقي وتسميد ودفع آفات، فانها تنبت، لكن بفضل تفاعلها مع أملاح الأرض وغيرها من مواد كامنة في التراب والماء، وما يصل اليها من شعاع الشمس وحرارتها، وهبوب الرياح وما الى ذلك، فإذا ما اجتمعت الأسباب المؤاتية لنبات الزرع ونمائه، حصل الزارع علىٰ نتيجة، لم تكن وليدة يده فحسب، وانما ساعده علىٰ ذلك عوامل طبيعية كثيرة لا تحصىٰ، كان لها القسط الاوفر، بل هي علّة العلل للإثمار والإنتاج.

ومع ذلك فانا ننسب الزرع اليه، ونقول: هو الذي بذر الحبة وانبت النبات وغرس الشجرة واثمرها، ونطلق عليه اسم الزارع والفلاح اطلاقاً حقيقياً، من غير عناية مجاز او استعارة، في حين انا لو دقّقنا النظر لوجدنا الفضل الأكبر، بل كان الفضل يعود الى عوامل أُخر كانت هي المساعدة والمؤثّرة لايجاد هذا الأثر والمنتجة لهذه النتيجة.

وعليه فبما ان هذه العوامل ـ التي نعبّر عنها بعوامل طبيعية ـ ليست سوى قوانين كلية ركبها الله في ذوات الاشياء، فاذا ما تفاعلت مع بعضها انتجت تلكم النتائج العظام، فهي في ذات وجودها، وفي بقائها على التأثير رهن قدرته تعالىٰ وارادته، ومن ثمّ فان نسبة الانبات والزرع والإثمار وما شاكل اليه تعالىٰ اولىٰ من نسبتها الى ذلك

www.noormags.com

الإنسان الذي كان حظّه في ذلك مجرّد تقارب وتآلف بين لفيف من عوامل طبيعية هي كانت تتفاعل بنفسها مع البعض وتستمد من قوى اخرىٰ فاعلة في طبيعة الوجود، كان قد اودعها الله تعالى في هذا الكون.

قال تعالىٰ: ﴿أفرأيتم ما تحرثون ○ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ وقال: ﴿أفرأيتم ما تمنون ○ أأنتم تخلقونه ام نحن الخالقون﴾..

فنسبة الزرع الى الزارع كنسبة الولد الى الوالد، لم يكن حظّ الوالد في ولادته سوى تلقيح قام به عن اختياره، وأمّا سائر شرائط التكوين فكانت خارجة عن اختياره.

والخلاصة: ان ما يوجد ويتحقّق في عالم الوجود إنما يوجد بفضل تفاعل القوى المودعة في هذا الكون، وإنما حظّ الإنسان من ذلك هو مجرد تقارب بعض هذه القوى مع بعض، لتتفاعل هي بانفسها.. وبعبارة اوجز: ان الإنسان انما يوجد بعض شرائط هذا التفاعل الطبيعي، أما أصل الإيجاد والتكوين فبفعل القوى الطبيعية، وهي بدورها مجعولة ومنتظمة بإرادة الله تعالىٰ وحوله وقوته. لا حول ولا قوة إلّا بالله.

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

٤ ـ التوحيد في العبادة

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً...﴾[١]. ﴿... فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾[٢]. ﴿وما امروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين...﴾[٣]. ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها...﴾[٤]. ﴿اياك نعبد واياك نستعين﴾[٥]. ﴿وما ارسلنا من قبلك من رسول إلّا نوحي إليه انه لا اله إلّا انا فاعبدونِ﴾[٦].

وحيث كانت «العبادة» ـ في حقيقتها ـ غاية الخضوع للمعبود، فلا يستحقها إلّا من كان

---

(١) النساء: ٣٦.
(٢) الزمر: ٢.
(٣) البينة: ٥.
(٤) الزمر: ١٧.
(٥) الحمد: ٥.
(٦) الانبياء: ٢٥.

www.noormags.com

علىٰ غاية من «الكمال»..

فالعبادة انما تجدر للغني الكامل على الاطلاق، وما سواه فقير ناقص الكمال، ولا عبادة لناقص فقير.

العبادة: خضوع مطلق، فلا يستوجبها إلّا من كان علىٰ كمال مطلق، وهو الله تعالى الغني على الإطلاق: ﴿ذلكم الله ربكم لا اله إلّا هو خالق كل شيء فاعبدوه...﴾[1]. الأمر الذي يتطابق مع الفطرة السليمة والعقل الرشيد: ان لا خضوع ولا استكانة الّا تجاه غنيّ بالذات كامل على الاطلاق ذي الجلال والإكرام.

وهذا يشكّل اساس دعوة الانبياء في جميع عهود الرسالة السماوية: الدعوة الى عبادة الله وحده واجتناب عبادة الطاغوت.

﴿ولقد بعثنا في كل أُمة رسولاً ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت...﴾[2]. ﴿وما ارسلنا من قبلك من رسول إلّا نوحي إليه انه لا اله إلّا انا فاعبدونِ﴾[3]. ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا الىٰ كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد إلّا الله، ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً اراباباً من دون الله...﴾[4].

وهكذا لا استعانة ولا استشفاع ولا استغاثة، إلّا بمن كان غنيّاً على الاطلاق، وصاحب قدرة وسيطرة تامّة على عالم الوجود. حيث الاستعانة بمن دونه جهل وسفاهة ورجوع فقير الىٰ فقير مثله، وذي حاجة الىٰ من هو أحوج منه، او مثله في الاحتياج. الأمر الذي ترفضه شريعة العقل.

وأمّا مسألة «التوسل» و«الاستشفاع» بمقام انبياء الله العظام واوليائه الكرام، فذاك إنما هو بتعريف من جانبه تعالىٰ وبإذنه: ﴿... ما من شفيع إلّا من بعد اذنه...﴾[5].

---

(١) الانعام: ١٠٢.
(٢) النحل: ٣٦.
(٣) الانبياء: ٢٥.
(٤) آل عمران: ٦٤.
(٥) يونس: ٣.

www.noormags.com

قال تعالىٰ: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾[1].

فهناك كانت مقارنة استغفار الرسول لاستغفارهم شَفْعاً يوجب قبول التوبة والإنابة الى الله سبحانه. كما ان مقارنة الدعاء والاستغفار لمكان شريف، كالمستجار وفناء الكعبة ولا سيما في حجر اسماعيل تحت ميزاب الرحمة. او زمان شريف، مثل عند الزوال، والاسحار، وعند نزول الرحمة. ولذلك لما طلب أولاد يعقوب من أبيهم أن يستغفر لهم وعدهم الاستغفار لدى السحر. ﴿قالوا يا ابانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين ○ قال سوف استغفر لكم ربي انه هو الغفور الرحيم﴾[2].

قال الإمام ابو عبد الله الصادق عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خير وقت دعوتم الله فيه الأسحار، وتلا هذه الآية في قول يعقوب ﴿سوف استغفر لكم ربي﴾. قال: اخّرهم الى السحر...[3] وبذلك قال سبحانه: ﴿وبالاسحار هم يستغفرون﴾[4].

فالمؤمن المتعهّد، يطلب لاستجابة دعائه مكاناً شريفاً، او زماناً شريفاً، ويجعله شَفْعاً لدعائه رجاء أن يقبل الله منه، ويرفع دعاءه الى الله جل جلاله.

افلا كانت نَفْسٌ شريفة ـ كنفوس الأنبياء الأطهار ـ صالحة للشفاعة وقبول الانابة! أفهل كانت فضيلة البيت، وشرافة الوقت بأكرم على الله من شخصية مثل محمد النبي الكريم، صلوات الله عليه وعلى آله الاطيبين؟!

كلّا، وقد قال تعالىٰ: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضىٰ﴾[5]، ﴿... عسىٰ أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾[6] وهو مقام الشفاعة ادّخرها لأُمته يوم القيامة، رزقنا الله نيلها إن شاء الله.

---

(١) النساء: ٦٤.
(٢) يوسف: ٩٧ـ٩٨.
(٣) المولى محسن الفيض الكاشاني في ـ تفسير الصافي ـ ١: ٨٥٥ عن الكافي الشريف ومن لا يحضره الفقيه والمجمع وغيرهن.
(٤) الذاريات: ١٨.
(٥) الضحىٰ: ٥.
(٦) الاسراء: ٧٩.

www.noormags.com